دولـة بني صُمـادح
مملكة الشعر والشعراء

د. عمر إبراهيم توفيق
استاذ مساعد
كلية التربية – جامعة
كركوك

- الخلاصة –

كانـت مملكـة بنـي صُمادح من دويلات الطوائـف فـي الأنـدلس ، وكانـت عاصـمتها " المرية " وشهدت في عهد ملكها المعتصم بن صُمادح ازدهاراً أدبياً كبيراً ، تجمع حوله الشعراء والعلماء ، وكان هذا البحث حزمـة ضـوء علـى هذه المملكـة تاريخيـا وأدبيـا وديوان شـعر لهذه الأسـرة الحاكمـة يجمـع بـين طياتـه مسـاجلاتهم ومشـاعرهم وأفـراحهم وآلامهـم التـي كانـت فـي معظمها عبـارة عن مقطعـات شـعرية قصـيرة قيلـت علـى البداهـة والارتجـال ، مـع الإشـارة إلـى القصائد المدحية الرصينة التي قيلت فيهم من قبل شعراء تنعموا برعايتهم وحسن معاملتهم .

– المقدمة –

من أهم أسباب ازدهار الأدب في عصر ملوك الطوائف ، ظهور اسر حاكمة كـان لهم بـاع طويل في مجال الأدب ، وكـان جلهم شـعراء يحسنون النظم ويقدرون الشـعراء . وكـان للشـعر رواج وقبول من العامة والخاصة ، لذلك ذهب بعضهم إلى انه لا يمدح إلا بمائـة دينـار ذهـب ، وكانـت الحصـيلة تراثـا ضـخما مزدهـرا تعبـر بصـدق عـن تلـك الحقبـة الزمنيـة ، وكـان بـلاط المعتصم بن صُمادح من أهم المنتديات الأدبيـة ، لـذلك حاولنـا جمـع مـا أوثـر عـن هـذه الأسـرة الحاكمة في "المرية " بعد أنْ كانتْ أخبارهم وأشعارهم متناثرة في كتب مختلفة ، لتغني المكتبـة الأندلسية بتاريخ هذه المملكة وأدبها ، والتي فيها صفحات جميلة نضرة، وصفحات مؤلمـة تعبـر عن الطبيعـة البشـرية ، ومـا يـؤول إليـه مصـيرهم مهمـا تفننـوا الاسـتمتاع بملـذات الحيـاة وقـل " ويبقى وجه ربك ذو الإجلال والإكرام "

وكان منهجنا في نقل المقطعات والقصائد هو الاعتماد على المصادر التي احتوتْ علـى العدد الأكبر من الأبيات من القصيدة أو المقطعة ونقل الصواب منها بعد مقارنتها بالأبيات الأقل عدداً ، التي وجدت في مصادر أخرى ، والتي كانت معظمها مكررة وباختلافات غير قليلـة مـن المصادر الأولى المعاصرة لتلك الحقبة. وأملنا في هذا خدمة المكتبة الأندلسية ، والله الموفق .

ازدهـر الأدب فـي عصـر الطوائـف ازدهـاراً عظيمـاً ، لـم يشـهد لـه نظيـرا فـي العصـور الأخرى وقد فاق على بقية العصـور مجتمعـة ، وتـألق فـي تلـك الحقبـة كبـار الإعـلام الأندلسـيين وعمالقتهم الذين منحوا الهوية الأندلسية لذلك التراث الضخم ، وظهر بينهم شعراء اغنـوا الأدب العربي . ونقلوا إلينا سجلاً حافلاً حوى بين طياته صور صادقة لحقبة زمنيـة مضـطربة سياسـياً واجتماعياً ، مطـرزة بنتـاج أدبـي جمـع بـين الصـنعة والفطـرة وجمـال الطبيعـة وسـحرها وتعـدد الأجناس العرقية وإختلافها ، فكانـت شـجرة يانعـة مزخرفـة ، بـذورها مشـرقية ومياههـا أندلسـية وتربتها أفرنجية وهواؤها عاصفة من الصراع السياسي والاجتماعي والديني ، وكانت بمجملهـا ثمـرة أينعتْ بفضـل الرعايـة والعنايـة التـي امتـدت مـن العصـر الـذهبي فـي عهـد عبـد الـرحمن

الناصر (٣٠٠-٣٥٠ هـ) وتأثير الكتب والمكتبات ودور العلم في عهد الحكم المستنصر (٣٥٠-٣٦٦ هـ) ومجالس الشعراء والعلماء في عهد الحجابة (٣٦٦-٣٩٨ هـ) ، وكان لاهتمام ملوك الأندلس في عصر ملوك الطوائف (٤١٨-٤٨٤ هـ) السبب الرئيس في التألق الأدبي ، فأصبحت بلاطاتهم مجالس للشعراء والعلماء ولاسيّما بلاطي المعتمد بن عباد والمعتصم بن صُمادح . موضوع بحثنا هذا والذي نحاول من خلاله تسليط الضوء على مملكة صغيرة بمساحتها كبيرة بشعرائها وعلمائها.

كانت مملكة "بني صمادح" تشمل المرية ولورقة وجيان وبياسة ، وكانت عاصمتها المرية بنيت في عهد عبد الرحمن الناصر سنة ٣٤٤ للهجرة ، وهي من المدن المشهورة في الأندلس المطلة على ساحل البحر ومن أشهر مراسيها، وكان الناس ينتجعونها ويرابطون فيها ، ومن أجمل أمصارها وعليها سور حصين منيع وسور تراب (١٣/ المرية)[٢]

وعن أهلها جاء في النفح " خص أهلها باعتدال المزاج ورونق الديباج ورقة البشرة ، وحسن الوجوه والأخلاق ، وكرم المعاشرة والصحبة " (٢٠/ ٣٠٦:٤) ولم يكن في بلاد الأندلس أكثر مالا من أهل المرية ، ولا أعظم متاجر وذخائر ، لذلك وصفها ابن حيان ، صاحب المسهب " فلها على غيرها من نظرائها ، اظهر مزية ، بنهرها الفضي وبحرها الزبرجدي وساحلها التبري وحصاها المجزع ومنظرها المرصع وأسوارها الصلبة الراسخة وقلعتها المنيعة الرفيعة الشامخة " (١٧/ ١٩٢:٢) وفيها الحصى الملوّن العجيب والرخام الصقيل الملوكي ، ووواديها المعروف بوادي بجاية من أفرج الأودية ، وقيل فيها:-

ارض وطئت الدر رضراضا[١] بها والترب مسكا والرياض جنانا

وكانت فيها من صنعة الوشي والديباج على اختلاف أنواعها ، ومن صنعة الخز وجميع ما يعمل من الحرير ، ما لم يبصر في المشرق ولا في بلاد النصارى حسب وصف ابن سعيد (١٧/ ١٩٣:٢) وعن صناعتها قال المقري : كان فيها من نسج الحرير ثمانمائة نول وللحلل النفيسة والديباج الفاخر ألف نول ، وللاسقلاطون والثياب الجرجانية والأصفهانية والعنابي والستور المكللة أكثر من ذلك ، ومن صنوف آلات الحديد والنحاس والزجاج ما لا يوصف ٠٠ وعن الفاكهة الموجودة فيها قال : " وفاكهة المرية يقصر عنها الوصف حسناً ٠٠٠ ووادي المرية طولها أربعون ميلاً في مثلها كلها بساتين بهجة ، وجنات نضرة ، وانهار مطردة وطيور مغردة " (١/٢٠ : ١٥٤) وكانت تقصدها المراكب التجارية من الإسكندرية والشام ، وجاء في الروض المعطار " إن المدينة كبيرة وكثيرة الخيرات ، وقيل فيها ألف فندق إلا ثلاثين " (١٣ / المرية) وتوسعت المدينة في عهد المعتصم بن صُمادح ، وانشأ قصره الكبير الممتد حتى الجبل والى جانبه بستانه المتنوع المسمى بالصُمادحية وكان له مجلس رحب مفروش بالرخام الأبيض وآخر مقروناً بالرفوف الذهبية ، ويليه من الجهة القبلية أبوابها

عليها شراجب[٣] يمكن أن يرى المدينة منها (١١/ ١٦٨)

ومن أبوابها باب العقاب عليه صورة عقاب من حجر قديم عجيب المنظر (١/٢٠ : ١٥٣) وكان المعتصم يؤثر العيش الهادئ بذلك القصر وينفق كثيراً من وقته في المجالس الشعرية والأدبية ، ووصف الشاعر عبد الله بن الحداد "ت٤٨٠ هـ" ذلك القصر بقصائد كثيرة منها :-

هو جنة الدنيا تبوأ نزلها ملك تملكه التُقى والدين
فكأنما الرحمن عجّلها له ليرى بما قد كان سيكون
وكأنما بانيه سنمار[٤] فما يعدوه تحسين ولا تحصين
وجزاؤه فيه نقيض جزائه شتان ماء الإحياء والتحيين (٢٠/٥:٢٤٠)

وجلب المعتصم الماء إلى جامعها داخل المدينة واستطرد منه جدولا يصب في أسفل القصبة ويرفع بالدواليب إلى أعلاه ، لان المدينة كانت على جبلين بينهما خندق معمور وعلى الجبل الواحد قصبتها المشهورة بالحصانة وعلى الآخر ربضها ، وعلى غربيها ربض آخر باسم "

ربض الحوض " فيها فنادق وحمامات وصناعات ، كما ان المدينة اشتهرت بكثرة متفرجاتها[٥] منها ، مني عبدوس ومنى غسان والنجاد وبركة الصفر وعيد النطبة (١٩٣:٢/١٧)
وألّف أبو جعفر بن خاتمة[٦] فيها كتابا مفقوداً سماه " مزية المرية على غيرها من البلاد الأندلسية " (١٥١:١/٢٠)
ومن جانب أخر هنالك حكايات في النيل منها ، والأرجح إنها تدخل في باب المنافسة التي كانت موجودة بين المدن الأندلسية منها :- ركب بعض أهل المرية في وادي اشبيلية ، فمرّ على طاقة من طاقات شنتبوس وهو يغني :

خلني من واد ، ومن قوارب ، ومن نزاها في شنتبوس
غرس الحبق الذي في داري أحب عندي من الفردوس

فأخرجت جارية رأسها ، وقالت له : من أي بلد أنت يا من غنّى؟ فقال : من المرية فقالت : وما أعجبك في بلدك حتى تفضله على وادي اشبيلية ؟ وهو بوجه مالح احرش ، وهذا من أحسن تعييب ، ثم وصفت محاسن اشبيلية وأوردت أبياتاً للشاعر الهجاء المعروف بالسميسر"أبو قاسم خلف الالبيري" [٧] قوله :

بئس دار المرية داراً ليس فيها لساكن ما يحب
بلدة لا ثمار الا بريح ربما قد تهب أو لاتهب (٣٦٠:٤/٢٠)

أسرة بني صُمادح

وهم أسرة عربية ، كان جدهم محمد بن احمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن صُمادح ابن عبد الرحمن ، وفي هذا يجتمعون مع بيت التجيبيين من ولاة سرقسطة (٨١:٢/٩) وصُمادح يعني الشديد كما جاء في وفيات الاعيان (١١٢:٤/٢٣) بينما ذكر ابن الخطيب ، إن صُمادح اسم امرأة بنت جدهم الكبير (١٦٤/٤) ولم يثبت ذلك في جمهرة انساب العرب لابن حزم (٨ / ٤٠٥) ، واستولى في بداية الفتنة على مدينة وشقة واعمالها في عهد الخليفة المؤيد هشام بن الحكم الأموي ، فحاربه إبن عمه منذر بن يحيى التحبيبي، فاستظهر عليه ، وعجز عن دفعه ، وترك المدينة ، لذلك قال المؤرخ ابن حيّان " لم يتملّ سلطانه ولا أورثه من بعده " (٤٥٦:١/١٢) وهرب إلى مدينة بلنسية التي كانت تحت حكم عبد العزيز بن أبي عامر ، فأكرمه وأوطنه بلده ، وزوج أختيه ابنيه معن وصُمادح ، ثم رأى اللحاق بالشرق فهلك غرقاً في البحر (٨٢:٢/٩) وكان صاحب رأي ودهاء ولسان وبراعة في استعمال السيف ، وروى انه كان له كتاب " مختصر غريب في تفسير القران للطبري " (٢٠/١٩) جاء في الذخيرة " وكان يحمل قطعة صالحة من الأدب ينال بها حاجته مخاطباً ومذكراً " (١٥٦:١/١٢) لذلك وصفه ابن عبد الملك المراكشي " بأنه كلن عالماً محدثاً من أهل الفضل والعلم " وبعد وفاته بقيّ ابنه معن في كنف صهره عبد العزيز بن أبي عامر صاحب بلنسية ، وكانت المرية ، تحت حكم الصقالبة[٨] ، وعندما قتل أميرها زهير الصقلبي في معركة مع باديس بن حبوس ، أمير غرناطة تحول ملكها إلى عبد العزيز بن أبي عامر لأنه كان من موالي اسرته (٢١٧/٤، ١٨/ ١٦٢:٤) وحسده على ذلك مجاهد العامري صاحب دانية والجزائر الشرقية ، فخرج غازياً إلى بلاد عبد العزيز ،وهو بالمرية ، مشتغلا في امورها ، وللتصدي لجيشه ترك صهره معن بن صُمادح ولياً عليها ، وقال ابن بسام " فكان شر خليفة استخلف " ولقبه بذي الغدرة الصلعاء فخان الأمانة ، وكان قليل الولاء وكثير المطامع ، فدعا لنفسه واستولى على المرية في سنة ٤٣٣ للهجرة بمساعدة أمير غرناطة ، ونصب الحرب لعبد العزيز بن أبي عامر وبهذا تكونت مملكة بني صُمادح (١/١٢ :٤٥٦-٤٥٧) واستمر في حكم المرية إلى وفاته سنة ٤٤٣ للهجرة ، ولم يرد عنه أي نشاط أدبي أو علمي في مملكته لعزوف الشعراء عنه وقال ابن خلكان " بعد استيلائه على السلطة ، لم يبق في ملوك الطوائف بالأندلس احد إلا ذمه على هذه الفعلة " (١١٢:٤/ ٢٣) . وقال ابن الآبار " فاجلس بنوعمه ورجاله ابنه أبا يحيى محمد ، ولم يستكمل

ثمان عشرة ، وكان أبوه اخذ البيعة له في حياته واحكم أمرها " (٨٣:٢/٩) وجاء في المغرب عن الحجاري في المسهب انه عندما تولى الحكم كان ابن أربع عشرة سنة ، وقال في وصفه " ملك تملكه الإحسان وأطلعه الفضل غرة في وجه الزمان ، فكأن أبا تمام عناه بقوله :

تحملُ اشباحنا إلى ملك نأخذُ من ماله ومن أدبهِ

فهتف باسمه المداح ، ومن المجد له عطف وارتياح . (١٩٢:٢/١٨) وتلقب بألقاب الخلافية ، المعتصم بالله ، والواثق بالله ، والرشيد بالله ، واشتهر بابي يحيى المعتصم بن صُمادح وقاله عنه ابن بسام : " لم يكن أبو يحيى هذا من فحولة ملوك الفتنة ، اخلد إلى الدّعة ، واكتفى بالضِّيق من السّعة ، واقتصر على قصر يبنيه ، وعلق يقتضيه ، وميدان من اللذة يستولي عليه ويبّرز فيه ، غير انه كان رحب الفناء ، جزل العطاء ، حليما عن الدماء والدّهاء ، طافت به الآمال ، واتسع في مدحه المقال ، وأعملتْ إلى حضرته الرّحال ، ولزمه جملة من فحول شعراء الوقت ... " (٤٥٨:١/١٢) وقال الفتح بن خاقان في القلائد " إن دولته كانت منبعاً للجود ، ومطلعاً للسعود ، ومشرعاً للوفود ، ووصفه "برواج بضائع الرجاء في سوقه ، وأناره مطالع الفضلاء بشروقه ، واتساق نظام نفائس الأفاضل ... وكان متنقلاً من مدارسة إلى مؤانسة ، ومن مذاكرة إلى معاشرة ، وهو من مغنى أدب إلى مثوى طرب ... " (١/١٤ : ١٤٦-١٥٦) وكان يقدر العلماء ويرعى الدين ، وجاء في الحلة السيراء انه كان " حصيف العقل ، طاهرا معنيا بالدين ، وإقامة الشرع ، يعقد المجالس بقصره للمذاكرة ، ويجلس يوماً في كل جمعة للفقهاء والخواص ، فيتناظرون بين يديه في كتب التفسير والحديث ... " (٩/ ٨٣:٢) لذلك اجتمع عنده طائفة من العلماء ، منهم أبو عبيدة عبد الله البكري[١٠] ، أعظم جغرافي الأندلس ، وصاحب المعجم الجغرافي، وقد أغدق عليه المعتصم كثيراً والعالم اللغوي أبو عبد الله محمد بن معمر (ابن أخت غانم المخزومي) ، ويروى انه كان له كتاب في النبات بعنوان " شرح كتاب النبات " لأبي حنيفة الدينوري في ستين مجلداً . (١٧٠/١١)

وعن عدله قيل انه لما بنى قصوره الصُمادحية ، غصبوا احد البيوت وألحقوه بالصُمادحية فبينما المعتصم يشرب على الساقية الداخلة على الصُمادحية ، اذ وقفت عيناه على أنبوب قصبة شمع ووجد فيها " إذا وقفت أيها الغاصب على الورقة ، فاذكر قول الله تعالى ، إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة ... ، فلما استوعب قراءتها دمعتْ عيناه ، وأخذته خشية ضيق عليها منها ... وقال عليّ بالمشتغلين ببناء الصُمادحية ، فاستفسر منهم ، وصدقوه واعتذروا بان نقصها من الصُمادحية يعيبها في عين الناظر ، فاستشاط غضباً وقال : والله إن عيبها في عين الخالق أقبح من عيبها في عين المخلوق ، وأمر بان تصرف إليه ، واحتمل تصويرها لصُمادحيته ، وكان يقول إن هذه القطعة طراز هذا المنظر وفخره ، وإنها في عيني أحسن من ما استقام من الصُمادحية "(٣٣٩:٤/٢٠) وكان حليماً ظريفاً مسامحاً لا يحب الدم والانتقام ، وجاء في المغرب " إن الشاعر النحلي[١١] ، دخل المرية وعليه أسمال لا تقتضيها الآداب ولا يرتضيها إلا الانتحاب والانتداب والناس قد لبسوا البياض ، وتصرفوا في مثل قطع الرياض ، والنحلي ظمآن يسعره جواره ، حين لا يستره إلا سواده، فكتب إليه :-

أيا منْ لا يُضاف إليه ثانٍ ومنْ ورث العُلى باباً فباباً
أيجمل أن تكون سواد عينِي وأبصر دون ما ابغي حجاباً
ويمشي الناسُ كلُّهم حماماً وأمشي بينهم وحدي غراباً

فبعث إليه من المال وكساه ، وكتب له :-

وردتَ بليلِ البهيم مطارفٌ عليك وعندي للصباح برودُ
وأنت لدينا ما بقيتَ مُقرّبُ وعيشك سلسال الجمام برودُ
(٨٤:٢/٩ ، ٢١/١٩)

ثم غادر المرية إلى اشبيلية ، فمدح ملكها المعتضد بن عباد بشعر قال فيه :-

إباد ابن عباد البربرا وأفنى ابن معن دجاج القرى

ونسّي ما قاله ، حتى حلّ بالمرية مرة ثانية ، فاحضر المعتصم لمنادمته ، وقدم له الطعام ليس فيها غير دجاج ، فقال النحلي ، يا مولاي ، ما عندكم في المرية لحم غير الدجاج ، فذكره بالبيت أعلاه ، وجعل يعتذر ، فقال له : خفض عليك ، إنما ينفق مثلك بمثل هذا وإنما العتب على من سمعه ، فاحتمل منك في حق من هو في نصابه ، ثم أحسن إليه وخاف منه ، وخرج من المرية ، وندم وكتب إليه:-

رضا ابن صُمادح فارقته فلم يرضني بعده العالم
وكانت مريته جنة فجئت بما جاءه ادم

وكان يتفقده بالإحسان على بعد دياره (٥/٢٠: ١٥٥-١٥٦) واهم ما اشتهر به المعتصم هو أدبه وشعره وحمايته لدولة الشعر والأدب وقد كان بلاطه منتدى لطائفة من أكابر شعراء عصره ، وكان ينافس في رعايته للأدباء والشعراء بلاط اشبيلية ، دولة ابن عباد فقد كان وزيره أبو الاصبغ عبد العزيز بن أرقم [١٢]شاعراً مقتدراً يجيد الوصف والمديح (١٧٠/١١) وكان مخلصاً له يشاركه في رعايته للأدب والشعراء ، ومما يروى إن الوزير رأى راية خضراء فيه ضيقة بيضاء في يد علج من علوج المعتصم نشرها على رأسه فقال:

نشرتَ عليكَ من النعيم جناحاً خضراء صَيِّرتِ الصباح وشاحا
تحكي بخفقٍ قلبَ مَن عاديته مهما يصافح صفحُها الأرواح
ضمنتُ لكَ النعمى برأي ظافر فترقب الفأل المشير نجاحا

(٤٥:٥/٢٠)

وكان هذا الوزير وفياً له على الرغم من تقلب الولاءات في ذلك العصر ، وأرسله المعتصم إلى المعتمد بن عباد فأعجب المعتمد به " ووقع في قلبه ، فأراد إفساده على صاحبه واخذ معه أن يقيم عنده ، فقال له : ما رأيت من صاحبي ما اكره فأوثر عند غيره ما أحب ، ولما رأيت ما اكره لما كان من الوفاء تركي له في حين فوّض اليَّ أمره ، ووثق بي ، وحملني أعباء دولته ، فاستحسن ذلك ابن عباد ، وقال له : فاكتم عليّ ، فلما عاد إلى صاحبه سأله عن جميع ما جرى له فقال : وجرى لي معه ما أن علمتك به خفت أن تحسب فيه كالامتنان والاستظهار ، وتظن إن خاطري فسد به ، وان كتمتك لم أوف النصيحة حقها ، وخفت أن تطلع عليه من غيري ، فيحطني ذلك من عينيك وتحسب فيه كيدا ، فحمل عليه أن يعلمه ، فاعلمه بعد أن تلطف هذا اللطف (٤٥:٥/٢٠)

وفي صورة أخرى عنه ، دخل الشاعر الكفيف الحصري القيرواني [١٣]على المعتصم ، فانشده قصيدة فلما انصرف تكلم المعتصم في أمره مع وزرائه وكتابه ليرى رأيهم فيه ، ونقل له كلام ابن الأرقم فدخل على المعتصم وقال :

يأيها السيد المعظّم لا تطع الكاتب ابن الأرقم
لأنه حية وتدري ما فعلت بابيك آدم

(١٦/ علي عبد الغني)

وكان بين المعتصم والشعراء مساجلات ورسائل شعرية ، ومن يطلع عليها ، يعتقد انه كان يتراسل شعراً فقط ، ومن ذلك :-

كتب الشاعر ابن عمار [١٤] إليه بعد أن أقام عنده طويلاً راجياً أذناً يجد فيه إلى الانصراف سبيلاً :-

يا واضحاً وضح السحاب الـ جود في معنى السماح
ومطابقاً يأتي وجوه البر من طرق المزاح
أسرفت في بر الضيا ف فجُد قليلا بالسراح

فأجابه

يا فاضلاً في شكره أصل المساء مع الصباح
هلا رفقت بمهجتي عند التكلم بالسَّراح
إن السَّماح ببعدكم والله ليس من السّماح

(١٠/ابن صُمادح ،٢/٢:١٩٣)

وجاء في النفح انه خرج يوماً إلى بعض متنزهاته ، فحل بروضة قد سفرت على وجهها البهيج ، وتنفست عن مسكها الأريج ، وماست معاطف أغصانها ، وتكللت بلؤلؤ الطلِّ اجياد قضبانها فتشوف إلى الوزير أبي طالب بن غانم[١٥]، احد كبراء دولته ، وسيوف صولته ، فكتب إليه بديها ، بورقة كرنب بعود من شجرة:

اقبل أبا طالب الينا واسقُط سقوط النَّدى علينا (٣٠٤:٤/٢٠)

وكان لوقع الشعر تأثير كبير على سياسته ، لذلك ارتبط معظم مقطعاته الشعرية بحوادث وحكايات رسمية ، وكان للشعراء دور رئيس في مسار هذه الحوادث ، وحكاياتها نصوص أدبية طريفة تختلط فيها السياسة والإدارة بالشعر والنثر وأصبح الأدب عبارة عن صور التاريخ تلك الدولة بكل تفاصيلها ووقائعها الرسمية والشخصية ، وتظهر فيها خلجات النفس الإنسانية وطبيعتها التي تتشابه في كل زمان ومكان ، وفيها كثير من العبر الحكم ممزوجة بقصص وحوادث يجد القارئ فيها المتعة والفائدة و بينها أساليب ومواقف تدل على الحكمة والبراعة فيما يمكن أن نسميها بأدب الملوك أو السلطانيات الأدبية ، وقد تطرق ابن عبد ربه الأندلسي في عقده في فصل مخاطبة الملوك عن كيفية التعامل معهم مقرونة بحوادث من التاريخ الإسلامي .

وجاء في النفح : انشد أبو حفص عمر بن الشَهيد [١٦]قصيدة في المعتصم يقول فيها :

سبط البنان كأن كل غمامة قد ركبتْ في راحتيه أناملاً
لا عيش إلا حيث كنتَ وإنما تمضي ليالي العمر بعدك باطلاً

فالتفت المعتصم إلى من حضر من الشعراء ، وقال : هل فيكم يجلب القلوب بمثل هذا ؟ فقال أبو جعفر بن الخزاز البطرني[١٧] : نعم ، ولكن للسعادة هبّات ، وقد أنشدت مولانا قبل هذا أبياتاً ، أقول فيها :

ومازلت اجني منك والدهر ممحلُ ولا ثمر يجني ولا الزرع يحصد
ثمار أيادٍ دانيات قطوفها لأغصانها ظل عليّ ممدّد
يرى جاريا ماء المكارم تحتها وأطيار شكري فوقهن تغرد

فارتاح المعتصم ، وقال أنت أنشدتني هذا ؟ قال: نعم ، قال والله ما مرت بسمعي إلى الآن ، صدقتَ للسعد هبَات ، ونحن نجيزك عليها بجائزتين : الأولى لها والثانية لمطل راجيها ونمط إحسانها (٣٨١:٤/٢٠)

وكان المعتصم قد طرق سمعه بان السميسر الشاعر هجاه ، فاحتال في طلبه ، حتى حصل في قبضته ثم قال : أنشدني ما قلتَ فيّ ، فقال : وحقِّ من حصلني في يدك ، ما قلتُ شراً فيك وإنما قلت :

رأيتُ ادم في نومي فقلت له أبا البرية إن الناس قد حكموا
إن البرار نسل منك فقال اذن حواء طالقة ، إن كانوا مازعموا

فأباح ابن بلقين صاحب غرناطة دمي ، فخرجت إلى بلادك هارباً ، فوضع عليّ من أشاع عني لتقتلني أنت ، فيدرك ثأرك بك ، ويكون الإثم عليك ، فقال : وما قلت فيه خاصة مضافاً إلى ما قلته في عامة قومه ؟ فقال : لما رأيت مشغوفاً بتشييد قلعته التي يتحصن فيها بغرناطة ، قلتُ :

يبني على نفسه سفاها كأنه دودة الحرير

فقال المعتصم ، لقد أحسنتَ في الإساءة إليه ، فاختر : هل أحسن إليك واخلي سبيلك أم أجيرك منه ؟ فارتجل :

خبرني المعتصم وهو بقصدي اعلم
وهو إذا يجمع لي أمناً ومنّاً أكرم

فقال خاطرك ، خاطر الشيطان ، ولك المن والأمان ، فأقام في إحسانه بأوطانه حتى خلع عن ملكه وسلطانه . (٣٨٠ : ٤/٢٠)

وكان بين السميسر و بعض أعيان المرية واقع لمدح مدحه لم يجزه عليه ، فصنع ذلك الرجل للمعتصم دعوة ، واحتفالية يليق بمقام الملك ، فصبر السميسر إلى أن ركب السلطان إلى الدعوة ، فوقف له في الطريق ، فلما حاذاه رفع صوته بقوله :-

يا أيها الملك الميمون طائره ومن لذي مأتم في وجهه عرس
لا تفرسنَّ طعاماً عند غيركم إن الأسود على المأكول تفترس

فقال المعتصم : صدق والله ، ورجع من الطريق وفسد على الرجل ما كان عليه (٤/٢٠ : ٢٩٧) وكان المعتصم شاعراً يجيد النظم على البديهة في مقطعات صغيرة تعبر عن الحدث ومحيطه ، وكان ينشرح كثيراً في المتنزهات ولاسيّما الصُمادحية ، ويتفاعل مع مظاهر الطبيعة ويدعو أصدقاءه إلى مشاركته للاستمتاع بمناظرها الخلابة ، وفي يوم حضر مجلساً بالصُمادحية في يوم غيم ، فقعد على موضع يتداخل الماء فيه ، ويلتوي في نواحيه ، وهو منشرح النفس مجتمع الإنس فقال :

انظر إلى حسن هذا الماء في صَبَبِهِ كأنه ارقم قد جدَّ في هَرَبه (١٨٧:٢/٢٠)

ومن شعره في الطبيعة :

كأنَّ انسياب الماء في صفحاتها حسام ثقيل المتن سُلّ من الغمدِ
تفورُ فوارةٌ مستديرةٌ لها مُقلة زرقاء موصلة السهدِ
أدرنا بها كأساً كأنّ حباتِها حبابُ سَقيط الطَّلِّ في ورق الوردِ
لها في غدير الماء لألأةُ جمرةٍ حكت نار إبراهيم في اللون والبرَد

وله :

الروضُ يشربُ والانوارُ تنسكبُ والشمس تظهر احياناً وتحتجبُ
وللبهار على افنانهِ زَهَر كأنّه فضة من فوقها ذهب (٢١:١٩)

ومن مقطعاته :

يا من بجسمي لبعده سقم ما منه غير الدُّنوِّ يبريني
بين جفوني والنّوم معترك تصُغُر عنه حروب صِفِّين
إن كان صرف الزمان أبعدني عنك فطيف الخيال يُدنيني (٢١:١٩)

واشتهر بطرائفه الأدبية ، وله أبيات غزلية ، منها :

وتحت الغلائِل معنى غريب شفاء الغليلِ وبُرءُ العليلْ
فهل ليَ من نيلهِ نائل ولابن السبيل إليه سبيلْ
فما لي إلا الهوى متجر فغير الغواني متاع قليلْ
فيا ربة الحُسن في غايةٍ وعَصَر الشباب وظِلَّ المقيلْ
ذريني أُعانق منكِ القضيبَ وارشُفُ من ثغركِ السلسبيلْ
(٤٥٩:١/١٢)

ومن شعره :

مؤلف من خلاف قلبه حجر وجسمه نعمة تدميه أنفاسي
وكلما أتمنى قربه جعلت مطامعي فيه تهوي بي إلى ياسي
(١٠: ابن صُمادح)

وجاء من النفح انه اصطبح يوما والجو معتدل والطبيعة جميلة فكتب إلى ابن عمار الشاعر وهو ضيفه :

ضمان على الأيام أن ابلغ المنى إذا كنت في ودِّي مُسِرّاً ومعلنا
فلو تسال الأيام : من هو مفرد بودِّ ابن عّمارٍ ؟ لقلتُ لها : أنا
فان حالت الأيام بيني وبينه فكيف يطيب العيشُ أو يحصل المنى

فلما وصلت الرقعة تأخر عن الوصول واعتذر بعذر واهن ، فقال احد الحاضرين إن جوابه تعذر فلذا اعتذر لأنه يعاني قوله ويعلله ويُرويه ولا يرتجله ، فرأى إن الوصول بلا جواب إقحال لأدبه ، فلما كان الغد حضر ابن عمار ومعه الجواب في قصيدة منها :-

هصَرتْ ليّ الآمال طيبة الجنى وسوَّغتني الأحوال مقبلة الدُّنى
وألبستني النعما أغضَّ منَ النّدى وأجملَ مِن وَشي الربيع وأحسنا
وكم ليلةٍ احظيتني بحضورها فبتُّ سميراً للسَّناء وللسَّنى
أعلل نفسي بالمكارم والعلا وأذني وكفّى بالغناء وبالغنى
سأقرن بالتمويل ذكرك كلما تعاورت الأسماء غيرك والكنى
لاوسعتني قوْلا وطولاً كلاهما يطوق اعناقاً ويخرس ألسُنا
وشرّفتني من قطعة الروض بالتي تناثر فيها الطبعُ ورْداً وسوسَنا
تروق بجيد الملك عقداً مُرَصَّعا وتزهو على عطفيه بُرداً مُزيّنا
فدُمْ هكذا يافارس الدست والوغى لتطعنَ طوراً بالكلام وبالقنا

(١٨٨:٢/٢٠)

وكان الشعراء يعرفون شغف المعتصم بالمجالس والطبيعة لذلك اقترن معظم مقدماتهم الشعرية الموجهة اليه بنصوص نثرية في وصف الطبيعة كالذي رواه الوزير أبوجعفر ابن سعدون "انه اصطبح يوماً بحضرته وللرذاد رش ، وللربيع على وجه الأرض فرش ، وقد صقل الغمام الأزهار حتى اذهب نمشها وسقاها فأروى عطشها ، فكتبت إليه :

فديناك لا يسطيعك النظم والنثر فأنت مليك الأرض وانفصل الأمر
مرَيْنا نداك الغمر فانهلَّ صيِّبا كما سكبت وطفاء أو سكب البحر
وجاء الربيع الطّلق يندي غضارة فحيتك منه الشمس والروض والنهر"

(١٨٨:٢/٢٠)

ومن شعره :

بأبي من زارني وهنا وقد طبق الأفق دجاه فأنارا
وعلى يمناه كأس انبتت من سناها فوق يسراه احمرارا

(١٠:ابن صُمادح)

وقوله :

لعمرك أن القلب نحوك شيق وأنت بما ألقى من الشوق اعلم
فودّك عن ودي إليك مبلغ وقلبك عن قلبي لديك مترجم

(١٠:ابن صُمادح)

ومن شعره وقد توفيت إحدى كرائمه ، فركب من قصره وأمر بمواراتها :

لما غدا القلب مفجوعاً بأسوده وفض كل ختام من عزائمه
ركبت ظهر جوادي كي اسليه وقلت للسيف : كن لي من تمائمه

(٨٣:٢/٩)

وقوله: وكتب إلى بعض حرمه في رقعة طيرها اليها في جناح حمامة

وحملت ذات الطوق مني تحية تكون على أفق المرية مجمراً
تبلغ من ودي إليكم رسائلا بأعبق من نشر العبير واعطراً

(٨٣:٢/٩)

وكتب إلى أبي بكر بن عمار مراجعا ومعاتبا ، وقد بلغه عنه ما اوجب ذلك من الاغتياب وقد ساء ظنه بمن حوله :

وزهدني في الناس معرفتي بهم وطول اختياري صاحبا بعد صاحب
فلم تُرني الأيام خلا تسرني مباديه إلا ساءني في العواقب
ولا قلت ارجوه لدفع ملمة من الدهر إلا كان إحدى المصائب

(٢:٢٤٢/١٢) (٢/١٧ : ١٩٤)،(١٠: ابن صُمادح)

وأجابه ابن عمار بالأبيات الآتية :-

فديتك لا تزهد وثم بقيــة ستـرغب فيها عنـد وقع التجارب
وابق على الخلصان انّ لديهم على البدء كرّات بحسـن العواقب
تكنفتني بالنظم والنثـر عاتبـا وسقطت على القول من كل جانب
وقد كانت لـي شئت ردّ وإنمـا اجر لساني ذكـر تلـك المواهـب
ولا بد من شكوى ولو بتنفس يخفف من حر الحشـا والترائـب
كتبت على رسمي وبعد نسيئـة قرأت جوابي في سطور المواكـب
ثلاثـة أبيـات وهيهـات إنمـا بعثت إلـى حربـي ثلاث كتائأب
وكيف يلد العيش من عتب سيد وما لذتي يوما على عتب صاحـب
وقبل جرت عن بعض كتبي جفوة الحت على وجهي بغمز الحواجب
سلكت سبيلي للزيـادة إثرهـا فقابلت دفعاً في صدور الركائـب
وما كنت مرتادا ولكـن لنفحـة تعوّدت من ريحان تلك الضرائـب
ولو لمعت لي من سمائك برقـة ركبت إلـى مغناك هوج الجنائـب
فقبلت مـن يمناك أعذب مـورد وقضيت من لقيـاك اوكد واجـب
وأبت خفيف الظهر إلا من النوى وخليت للعافـي ثقـال الحقائـب
سواك يعي[18] قول الوشـاة من العدى وغيرك يقضـي بالظنـون الكواذب

(١٠ : ابن صُمادح)(٢٢٤:٢/١٢)

وفي الوافي :

سواك يعي قول الوشاة من العدى وغيرك يقضي بالظنون الكواذب
ولو إن دهري ساعدتني صروفـه ركبت إلى مغناك هوج الركائـب
وقبلت من يمناك أعذب موردٍ وأديت من رؤياك أكـد واجـب

(٢٢/المعتصم بن صُمادح)

وقد اظهر الشعراء الإخلاص له ، منهم : أبو عبد الله عبادة المعروف بـابن القزاز[19] الذي انشد له قوله :

ولما لم أكن عبداً لآل صُمادح وفي أرضهم أصلي وعيشي ومولدي
لما كان لـي إلا إليهم ترحَّـل وفي ظلِّهم أمسي واضحي وأغتـدي

فارتاح ، وقال : يا ابن عبادة ، ما أنصفناك بل أنت الحر لا العبد ، فاشرح لنا في املك فقال : أنا عبدكم ، كما قال ابن نباتة :

لم يُبق جودك لي شيئاً اؤملـه تركتنـي اصحب الدنيـا بلا أمـل

فالتفت إلى ابنـه الواثق يحيـى ولـي عهده ، وقـال : إذا اصـطنعت الرجـال فمثل هذا فاصـطنع ، ضمه إليك وافعل معه مـا تقتضيه وصيتي بـه ، ونبهنـي إليـه كل وقت فقام مدعيا لـولي عهد المذكور وله فيهما موشحات عدة منها :-

كم في قدود البان تحت اللمم من أقمر عواطي
بـانمـل وبنـان مثل العَنَـم لم تنبري للعاطي

(٣٧٩:٤/٢٠)

وكان هذا الشـاعر من شعراء بلاطـه ، وقد بـرع فـي مجـال الموشـحات . ونسج علـى مـوال عبادة بن ماء السماء ، وكان له الأثر البالغ في انتشـار هذا الفن ، ولـم يـأت ابـن بسـام الـى ذكـر موشـحاته ، قـائلا : " وتلـك الاعـارض خارجـة عـن هـذا التصـنيف " (٥٠٠:١/١٢) وقصـده اعـاريض الفراهيـدي ، فيمـا نشـر ابـن سـناء الملـك موشـحاته فـي دار الطـراز وجـاء فـي أزهـار الرياض " كان من شعراء المعتصم ، فوشحه بكل در منظم ، وعقد بمعنى البلاغة والبداعة ملم "

(٨١:٣/٣)

كما له قصيدة في المعتصم خلط بين المديح والنسيب في بيت واحد ، منها :

نفى الحب عن مقلتي الكرى كما قد نفى عن يديّ العدم
فقد قرَّ حبك فـي خاطـري كما قرّ في راحتيه الكـرم
(٢٤١:٥/٢٠)

وحضر مجلس المعتصم ، وبين ايديهم ورد مصبوب ، فبز من داخل ورقه ، الحيوان الاخضر المعروف بالقيقزان ، فقال له المعتصم : صفه ، فقال :
واخضر حمادى في الورد لائح على صفح ورد حسنه مناهـي
كما اخذت حسناء فص زمـرد بصفرة مسواك وحمرة شفـاه
(٨١:٣/٣)

وكتب يوماً إلى المعتصم وقد تأخرت صلات شعرائه :
يا أيها الملك الذي حاز العلا معن أبوه وخاله المنصـور
بفناء قصرك عصبة أدبيـة لا زال بشملهـم معمـور
زفوا إليك بنـات أفكارهـم واسبطوك فهم لهن قصـور
(٨١:٣/٣)

ومن شعرائه الاخرين : ابو عبد الله بن حداد (٤٨٠هـ)[٢٠] والذي قال عنه ابن بسام " شمس ظهيرة وبحر خبر وسيرة وديوان تعاليم مشهورة .." (٤٣١/١) ومعظم قصائده المدحية في ابن صمادح ، واشتهر في صباه بحبه لفتاة نصرانية اسمها "نويرة" وقال فيها شعراً كثيراً موصفاً حبه وطقوس ديانتهم ، وقد اورد ابن بسام جملة من هذه القصائد والمقطعات (١/١٢ : ٤٣٩-٤٤٢) مع عدد من رسائله تتصف بالجمل القصيرة والسجع ، ولغة يحاول اظهار براعته من خلال مفرداته وكثرة مجازاته وتشبيهاته (١٢/ ١: ٤٣٢-٤٣٩) . وله قصائد كثيرة في المعتصم . اشهرها قصيدة تتكون من واحد وعشرين بيتاً مطلعها :-
لعلك بالوادي المقدس شاطىء فكالعنبر الهنديِّ ما انا واطىء
(٤٥٨:١/١٢) ، (٤٩:٥/٢)

ومن بدائعه :
سامح اخاك اذا اتاك بزلةٍ[٢١] فخلوص الشيء قلما يتمكنُ
في كل شيء آفة موجودة ان السراج على سناه يدخنُ
وانشد احد الادباء هذين البيتين متمثلاً ، فاعجبا المعتصم ، وسأل عن قائلها ، فاخبر ، فتبسم وقال : تعرف الى من اشار بهذا المعنى ؟ قال : ما اعرف الا انه مليح ، فقال المعتصم ، كنت في الصِّبا ، وهو معي القب بسراج الدولة ، فقاتله الله ما اشعره ، فسلوه ، فلما باحثوه في ذلك اقرّ بحسن حدس المعتصم (٥٠:٥/٢٠)
وكان ممن يغلب لسانه على عقله ، وقال في المعتصم
يا طالب المعروف دونك فاتركَنْ دار المريـة وارفض ابن صُمادح
رجل إذا أعطـاك حبـة خردلٍ ألقاك فـي قيد الأسير الطائـح
لو قد مضى لك عمر نوح عنده لا فرق بينك والبعيد النـازح
(٥٠:٥/٢٠)

فاغتاظ عليه المعتصم ، ففرّمن بلده ، وقال :
وسما الى الملك الرّضا ابن صمادح فادالني بالسخطِ من رضوانـه
وهوى بنجمي من سماء سنائـه وقضى بحطّي من ذُرا سلطانه
(٤٥٣:١/١٢)

وحبس أخوه ، فكتب من مرسية :
الدهر لا ينفك من حدثانـه والمرءُ منقادٌ لحكم زمانــه
فدع الزمان فانـه لـم يعتمدْ بجلاله احداً ولا بهوانـــهِ
كالمزن لم يخصص بنافع صوبه افقاً ولم يختر اذى طوفانـه

لكن لباريه بواطن حكمة في ظاهر الاضداد من اكوانه
وعلمت ان السعيَ ليس بمنج ما لايكون السعد من اعوانه
والجد دون الجد ليس بنافع والرّمح لايمضي بغير سنانه

وبلغت الأبيات المعتصم ، فقال : شعره أعقل منه ، صدق فانه لايتهيأ له صلاح عيش إلا بأخيه ، وهو بمنزلة السنان من الرمح ، ثم أمر بإطلاقه واللحاق به (٤٥٣:١/١٢)

ومن شعره في وصف أسطول المعتصم :

هام صرف الردى بهام الأعادي إن سمَتْ نحوهم اجياد
وتراءتْ بشرعها كعيون دأبها مثل خائفيها سهاد
ذات هدب من المجاذيف حاكٍ هدب باك لدمعة اسعاد
حم فوقها من البيض نار كل من إرسلتْ عليه رماد
ومن الخط في يدي كل در الف خطُّها على البحر صاد

(١٩٨:٥/٢٠)

ومن الشعراء الاخرين : ابو حفص عمر بن الشَهيد[٢٢] وقال ابن بسام "..كان فارس النظم والنثر وأعجوبة القِران والعصر.." (٤١٧:١/١٢) ، واورد له رسالة إلى بعض إخوانه بسبع صفحات من مقامة طويلة له (٤١٩:١/٢٠-٤٢٧) مع عدة قصائد ومقطعات ، معظمها في مدح المعتصم بن صُمادح ،

ومن أبياته فيه :-

لا عيش إلا حيث أنت وإنما تمضي ليالي العمر بعدك باطلاً
لا عُطّلت منك الحياة فإنها لولاك ما سرت لبيباً عاقلاً

(٤٢٧:١/١٢)

والشاعر " أبو الفضل ابن شرف الجذامي "[٢٣] الذي وفد على المرية في زي تظهر عليه العداوة ، فانشد قصيدة في واحد وأربعين بيتاً ، مطلعها :

مطل الليل بوعد الفلق وتشكّى النجم طول الأرق

وأعجب بها المعتصم ، وكان يفد عليه في الأعياد وأوقات الفرح والفتوحات ومن أبياته فيه :-

قد وقف الشكر بيّ لديكم فلست أقوى على الوفاده
ونلت أقصى المراد منكم فصرت أخشى من الزياده

(٣٦٦:٤/٢٠)

وجاء في النفح " وفد عليه يشكو عاملا في قرية يحرث فيها ، وانشده رائية مطلعها :-

قامت تجر ذيول العَصَب والحبر ضعيفة الخصر والميثاق والنظر

إلى قوله :-

لم يبق للجور في أيامهم اثر غير الذي في عيون الغيد من حوَر

فقال له : كم في القرية التي تحرث فيها ؟ فقال : نحو خمسين بيتاً ، فقال له :-

أنا أسوغك جميعا لهذا البيت الواحد ، ثم وقع له منها ، وعزل نظر كل والٍ (٣٦٦:٤/٢٠) فضلاً عن عدد آخر من الشعراء منهم : أبو القاسم الأسعد بن بليطة . وقد ورد ذكره في الكتب الأندلسية . وفصل ابن بسام عنه (٤٩٣:١/١٢-٥٠٠) ، وأورد المقرى له عدداً من القصائد والمقطعات في المعتصم ، منها :

إذا سار سار الجود تحت لوائه فليس يحط المجد إلا إذا حطا

(٢٣٩:٥/٢٠)

وتجاوز مديح المعتصم إلى فن المقامات ، ولأبي محمد بن مالك القرطبي ، مقامة طويلة خاطب بها المعتصم وأورد ابن بسام سبع صفحات منها (٤٦٣:١/١٢٠-٤٧٠) ومنها :

"... أما الافئدة من بعده فمفؤودة ، أما الأكباد لبعده فمكبودة ، والدهر من بعده ليلة ليلاء . والناس جبلة دهاء ... "

نهاية مملكة بني صُمادح .[٢٤]

في القرن الخامس للهجرة انقسمت بلاد الأندلس إلى دويلات وإمارات متصارعة ، فدب الضعف والفساد في القوة الرادعة المسلمة ، وتقوت الممالك النصرانية في الشمال والشمال الشرقي التي أخذت بالتوسع ، والتدخل في علاقة أمراء الأندلس بعضهم ببعض لاسيما ان قسماً منهم قد استقووا بهم ضد خصومهم من المسلمين ، وبعد منتصف القرن ، برز إسم الفونسو السادس . ملك قشتالة واخذ يضرب ملوك الأندلس بعضهم ببعض ويفرض الجزية عليهم وتمكن في سنة ٤٧٨ للهجرة إحتلال العاصمة القديمة لهم " طليطلة " التي تقع في وسط الأندلس ، لذا قال الشاعر ابن العسال"ت ٤٨٧" تهكما:

حثوا مطاياكم عن ارض اندلس فما المقام بها الا من الغلــط
الثوب ينسل من أطرافه وأرى ثوب الجزيرة منسولاً من الوسط

(١٥٤:٢/١٢)

وأصبحت الجيوش القشتالية تجوب الأندلس من أقصاه إلى أقصاه دون رادع ، فاتجه ملوك الطوائف وفي مقدمتهم المعتمد بن عباد الى الاستنصار بيوسف بن تاشفين ، أمير دولة المرابطين في شمال أفريقيا ، ولم يكن المعتصم من المتحمسين لتلك الفكرة ، نظراً لموقع مملكته في الطرف الجنوبي من الجزيرة ، وتخوفه من أطماع المرابطين في الأندلس لما كانوا يعانون من شظف العيش في بلادهم وكانوا من قبائل البربر اللمتونين لذلك حين عبر ابن تاشفين البحر الى

الأندلس لم يشارك شخصياً في القتال معهم ، وأرسل قواتاً من مملكته للمشاركة ضمن القوة الأندلسية التي حشدت للتعاون مع الجيش المرابطي وبعدها تقرب من ابن تاشفين ، وقدم له التحف والهدايا وتلطف في خدمته . واقبل عليه أكثر من بقية ملوك الطوائف (١٧١/١١) و كان يقول لرجاله " هاذا رجلا الجزيرة" وكان يقصد المعتمد والمعتصم (٧٤/١٥) وقد انتصروا على جيش الفونسو في معركة الزلاقة سنة ٤٧٩ للهجرة دون أن يستغلوا ثمرة ذلك النصر والذي أدى به إلى النهوض بالسرعة والإغارة على المدن الأندلسية مجددا ولاسيما في موقع " ليط " القريب من مملكة بني صُمادح ، مما اضطر ابن تاشفين العودة بقواته فيما يسمى بالعبور الثاني ومحاصرة ذلك الحصن ، وقد شارك المعتصم شخصياً في ذلك الحصار الذي استمر أربعة أشهر دون أن تتمكن القوات المسلمة من اقتحامه على الرغم من وفرة قواتهم وعددهم ، وكانت فترة إقامة ابن تاشفين كافية للتعرف على أحوال ملوك الأندلس وما بينهم من بغض وتحاسد لاسيما بين المعتصم والمعتمد ، وجاء في المعجب " وكان المعتصم هذا قديم الحسد للمعتمد كثير النفاسة عليه ، لم يكن في ملوك الجزيرة من يناؤه غيره ، وربما كانت بينهما في بعض الأوقات مراسلات قيمة .. " (٧٤/١٥) وحاول كل واحد منهما الحط من مكانة الآخر عند ابن تاشفين لذلك قال عبد الواحد المراكشي : ".. فشرع المعتصم فيما أراده من ذلك ، ولم يدر انه ساقط في البئر الذي حفر وقتيل بالسلاح الذي شهر ... " (٧٥/١٥)

ومن المراسلات التي جرت بين المعتصم والمعتمد ما أورده ابن الآبار (٨٣:٢/٩) عندما اعتذر المعتصم في المشاركة شخصياً في معركة زلاقة ، فكتب له المعتمد متهكما :-

يا بعيداً وان دنا كم تمنيت قربكما
أنت حسبي من المنى ليتني كنت حسبكما

وبعد تلك المعركة تلاقيا عند ابن تاشفين ، والمعتصم قد تزين بحمل العمامة ولبس البرنس ، فنظر إليه المعتصم ، وفهم انه يهزأ به وانصرف ، فضاحك المعتمد في ذلك من جالسه في وزرائه ، وقال بعد أن أهداه احد وزرائه وردة نرجس .

أزف الصيام وزار نور النرجس فلقيت زورته بحث الاكؤس
في ليلة دارت على نجومها حتى سكرت بكف قوت الأنفس
خوت تملكت الفؤاد فريدة بندي الثنايا والمحيّا المشمس
وجعلت نقلي ذكر موصل زفرتي فجمعت أشتات المنى في مجلس

ولقد ذكرت فراد عينـي قرّة هون السبال وخزى ربّ كرنـس
(٨٤:٢/٩)

فكتب إليه المعتصم :

شكري لبرّك شكر الروض للمطر ونفح بشرى به أذكى من الزهر
وجاءني مخبر عنه ، فقلت لـه بالله قل واعد ياطيّـب الخبـر
يا واحداً علماً فـي كلّ منقبـة جلّت ، ويا ثالثاً للشمس والقمـر
لئن حرمت لقاء منك اشكـره لقد حلت سواد القلـب والبصـر
(٨٣:٢/٩)

فراجعه :

انفحة الروض رقت في صب السحر من بعد مابات والانداء في سمر
لا ، بل تحية محض الودّ بلّغهـا برّ شريف المعالي ماجد النفـر
أما لعمر أبي يحيى لقد وصلـت من بره صله أحلى من الظفـر
يامن وردت الوفاء الغمر مرتويـا من عهده إذ يساقي الناس بالغمر
أحرزت سرو السجايا ثم قارنـــه ظرف اللسان اقتران الكأس بالوتر
إذ اعتبرت من الأخلاق انفسهـا كنت المنافس فيه السامي القـدر
عليك منـي سـلام لا يزال لــه فرض تؤديه اصال الى بكـر
(٨٤:٢/٩)

وكان يوسف بن تاشفين قد تحرك قلبه على ملوك الطوائف ، لما كان بينهم من بغض وحسد ، وما يتصفون من الوهن والضعف وسوء إدارة وبذخ كبير ، وكان لرجال الدين والشخصيات الأندلسية دور كبير من خلال مراسلاتهم والطلب منه الغوث في القضاء على هؤلاء الملوك الذي قال عنهم الشاعر ابو الحسين بن الجد[٢٥]:-

أرى الملوك أصابتهم بأندلـس دوائر السوء لا تبقي ولا تـذر
قاموا وأسرى لهم تحت الدجى قدر هوى بأنمجهم خسفاً وما شعروا
وكيف يشعر من في كفه قدح يحدو به ملهياه الناي والوتـر
(٦ :٣، ١١٠)

وفي الجانب الآخر لا يمكن إنكار مطامع ابن تاشفين في البلاد واستغلاله لمجاهرة المعتمد والمعتصم في العصيان على سلطة المرابطين قولا وفعلاً من خلال تحالفهم مع الإفرنج لردهم ، فتحرك جيش المرابطين سنة ٤٨٣ للهجرة لغرض القضاء على هذه الدول ، وكانت فتاوى الفقهاء لصالحهم فقضوا على معظم هذه الدويلات وكانت أهمها مملكة بني عباد التي سقطت في رجب من عام ٤٨٤ للهجرة واقتيد ملكها إلى الأسر ، وبهذا اقتربوا من مملكة بني صُمادح
(٤٥٦/١-٤٥٩) ، (٦٥:٢/٩) ،(٦٦:٢/٥)

وجاء في وفيات الأعيان " فلما تغيرت نية الأمير يوسف على المعتمد وجاهره بالعصيان شاركه في ذلك المعتصم ووافقه على الخروج عن طاعته وعدم الانقياد لأمره ، فلما قصد الأمير يوسف بلاد الأندلس عزم على خلعهما وقبضهما" (١١٢:٤/٢٣)

فحاصروا " المرية " بعد احتلال معظم حصونها ، وفي ذلك روايات مختلفة ، وقد اجمع معظمها (٤٥٨:١/١٢، ١٦٨:٣/٦ ، ١٩٣:٤ ، ١٨ /٦٢:٤ ، ...) على رواية ابن بسام الذي كان معاصراً للحدث من إن المعتصم كان يعاني مرض موته واخذ جيش المرابطين بقيادة سير بن أبي بكر حصونه وأراضيه وحاصروا المرية . وجاء في الذخيرة على لسان حظية له : " إني لعنده ... وقد غلب على أكثر يده ولسانه ، ومعسكر أمير المسلمين بحيث يومئذ نعد خيماتهم ونسمع اختلاط أصواتهم ، إذ سمع وجبة من وجباتهم فقال : لا اله إلا الله . تغص علينا كل شيء

حتى الموت ، قالت : فدمعت عيني فلا انس طرفاً اليّ يرفعه وإنشاد واياي لي بصوت لا أكاد اسمعه :

ترفق بدمعك لاتفنه فبين يديك بكاء طويل (٤٥٩:١/١٢)

ومات في اثر ذلك من يوم الخميس لثمان بقيت من الربيع الأول سنة أربع وثمانين وأربعمائة للهجرة ودفن في تربة عند باب الخوضة . (١١٢:٤/٢٣)

وجاء في المغرب " وكانت مدة مملكة الصُمادحية نحو خمسين سنة ونيف ملك المعتصم فيها إحدى وأربعين سنة وهو ابن اربع عشرة سنة وقال عند موته:-

تمتعت بالنعماء حتى مللتها وقد أضجرت عيني مما سئمتها
فيا عجباً لما قضيت قضاءها ومليتها عمري تصرم وقتها
(١٩٣:٢/١٧)

وفي رواية أخرى إن المعتصم توفي قبل مقدم المرابطين ، وانه كان يعلم بنيتهم فأوصى ولده معز الدين احمد بأنه متى سقطت دولة المعتمد ، عليه أن يعبر البحر في أهله وأمواله إلى أمراء بني حماد في شمال أفريقيا ، وان ابنه تولى الحكم بضعة أشهر ، ولما سقطت اشبيلية ركب معزالدين أهله وأمواله في ثلاث سفن واحرق البقية خشية المطاردة ، ونزل آل حماد قرب بجاية وعاشت أسرته هنالك . (٨٣:٢/٩) ، (١١ : ١٧٠-١٧٣) وجاء في نهاية الأرب في فنون الأدب انه مات غمدا بعد أن علم بسقوط اشبيلية حيث جاء نصاً :

" فقال المعتصم لولده : مادام المعتمد بن عباد باشبيلية فلسنا نسأل عنه ، فاتاه الخبر بفتح اشبيلية واسر ابن عباد فمات غمداً فخرج ولده بإخوته وأهله في مركب حربي شحنه بأمواله ، واقلع إلى الجزائر والتحق ببني حماد فأحسنوا إليه واسكنوه مدينة تدلس " (٥٧:٢١)

ورثاه أبو الحسن جعفر ابن إبراهيم الحاج بمخمسة طويلة ، وظف الطبيعة للتعبير عن فاجعته ونقلها المقرى كاملة منها :- " ٢٤٢:٥/٢٠-٢٤٤"

ياربّ ارض قد خلت قصورها وأصبحت آهلة قبورها
يشغل عن زائرها مزورها لا يأمل العودة من يزورها

هيهات ذاك الورد ممنوع الصدر

تنتحب الدنيا على ابن معن كأنها ثكلى أصيبت بابن
أكرم مأمول ولا استثنى أثنى بنعماه ولا اثني

والروض لاينكر معروف المطر

عهدي به والملك في ذماره والنصر فيما شاء من أنصاره
يطلع بدر التمم من ازراره وتكمن العفة في أزاره

ويحصر السؤدد ايان حضر

أبناؤه :-

الواثق عز الدولة أبو محمد عبد الله بن المعتصم ، ولي عهده ، وقال الفتح بن خاقان في شعره " وكان نظمه بديع الوصف ، رفيع الرصف ، وقد اثبت له ما يشهد بإجادته وإحسانه ، شهادة الروض بجود نيسانه " وعنه قال " فتى الراح المعاقر لدنانها المهتصر لأغصان الفتوة وأفنانها ، المهجر لفلاة الظباء والآرام ، المشتهر في باب الصبابة والغرام ، نشا في حجر أبيه نديم قهوه ، ومديم صبوه ، وخديم شهوه ، لا يريم كاسا ولا يروم الا اقتضاء وانتكاساً ، ما شهد قتلا ولا قتالا ، ولا تقلد صارما إلا مختالا ...) (١٤٨/١٤) ، وقال عنه ابن حيان في المسهب " قمر عاجله المحاق قبل التمام فنشر من يديه ما كان عقده من ذلك النظام وكان خصه بولاية عهده " (٢٩٣:٢/١٧) أرسله أبوه رسولا إلى يوسف بن تاشفين عندما كان في غرناطة فاعتقله وقيده فكتب إلى أبيه :-

ابعد السنا والمعالي خمول وبعد ركوب المذاكى كبول
ومن بعد ماكنت حرا عزيزا أنا اليوم عبد أسير ذليل
حللت رسولا بغرناطة فحل بها بي خطب جليل
وثقفت إذ جئتها مرسلا وقبلي كان يعز الرسول
فقدت المرية ، أكرم بها فما للوصول إليها سبيل
(٢٥٢:٩/٢٠)

فراجعه أبوه :-

عزيز علىّ ، ونوحي دليل على ما أقاسي ودمعي يسيل
وقطعت البيض أغمادها وشقتْ بنود وناحت طبول
لئن كنت يعقوب في حزنه ويوسف أنت ، فصبر جميل

ثم تمكن المعتصم من أخذه من حراسه ، وهرب به إلى البحر ، فوافى المرية (٢٥٢:٩/٢٠)

وكان قد حضر مع القائد المرابطي الأمير يحيى بن أبي بكر قبيل معركة زلاقة ، فلما شارفها سقط احد ألويته من حامله وانكسر الرمح ، فتطير قوم وتفاءل آخرون فقال عز الدولة :

لم ينكسر عود اللواء لطيرة يخشى عليك بها وان تتأولا
لكن تحقق انه يندق في نحر العدو لدى الوغى فتعجلا
(٨٣:٢/٩)

وذكر أبو عامر السالمي ، انه ولى بعد أبيه المعتصم وبقي بالمرية إلى وقت القبض على المعتمد محمد بن عباد ثم ركب البحر واسلم المرية وأعمالها وقصد بجاية فأقام تحت رعاية احد أمراء الصنهاجيين ، وكان بينهما جميلا ، (٩ : ٨٣/٢) بينما أجمعت المصادر الأولى كافة انه ترك المرية عقب وفاة أبيه وقصد البجاية كما ذكرنا عند حديثنا عن نهاية دولة المعتصم . وقال عنه السالمي :- " انه استقر هناك إلى انقرض بين آس وكأس " (٨٣:٢/٩) وله قصيدة يبين فيها ما آلت عليه حياته في شمال أفريقيا قائلا :-

لك الحمد بعد الملك أصبحت خاملا بأرض اغتراب لا أُمر ولا أُحلي
وقد صدأت فيها الهوادة منصلي[٢٦] كما نسيت ركض الجياد بها رجلي
لا سمعي يصغي لنغمة شاعر وكفى لا تمتد يوما إلى بذل
طريدا شريدا لا اومل رجعة إلى موطن بوعدت عنه ولا أهل
وقد كنت متبوعا فامسيت تابعا لدى معشر ليسوا بجنسي ولا شكلي
يخوضون فيما لارى فيه خائضاً وقبلهم قد أقصدت مقتل النبل
وقولي مسموع وفعلي محكم وها أنا لا قولي يجوز ولا فعلي
وقد كنت غرا بالزمان وصرفه فقد بان قدر العز عندي والذل

عزاء فكم ليث يصاد بغيلــه ويصبح من بعد النشاط لفى حبل
(٢/١٧ : ١٩٣) (١٩٩:٢/١٨)

ونقل لنا المقري شهادة طويلة للشاعر ابن اللبانة عن حياته أعلاه بأسلوب أدبي رفيع فآثرنا نقلها نصاً (٣٤٠-٣٣٩:٤/٢٠)

قال ابن اللبانة الشاعر : ما علمت حقيقة جوهر الدهر حتى اجتمعت ببجاية مع عز الدولة بن المعتصم بن صُمادح فاني رأيت خير من يجتمع به ، كأنه لم يخلقه الله تعالى إلا للملك والرياسة وإهداء الفضائل ، ونظرت إلى همته تنم من تحت خموله كما ينم فرند السيف وكرمه من تحت الصداه مع حفظه لفنون الأدب والتواريخ وحسن استماعه واسماعه ، ورقة طباعه ولطافة ذهنه ، ولقد ذكرته لأحد من صحبته من الأدباء في ذلك المكان ووصفته بهذه الصفات ، فتشوق إلى الاجتماع به ورغب إلى من استأذنه في ذلك ، فلما أعلمت عز الدولة قال : يا أبا بكر لتعلم أنا اليوم في هزل وضيق لا يتسع لنا معهما ، ولا يجمل بنا الاجتماع مع احد ، لاسيما مع ذي أدب ونباهة يلقانا بعين الرحمة ، ويزورنا بمنة التفضل في زيارتنا ، ونكابد من ألفاظ توجعه وألحاظ تفجعه ما يجدد لنا همّا قد بلى ، ويحيي كمدا قد فنى ، وما لنا قدرة على ان نجود عليه بما يرضى به همتنا ، فدعنا كأننا في قبر ، نتدرع لسهام الدهر بدرع الصبر ، وأما أنت فقد اختلطت بنا اختلاط اللحم بالدم وامتزجت امتزاج الماء بالخمر ، فكأنا لم تكشف حالنا لسوانا ، ولا أظهرنا ما بنا لغيرنا فلا تحمل غيرك محملك ، قال ابن اللبانة: فملأ والله سمعي بلاغة لا تصدر الا عن سداد ونفس أبيه متمكنة من أعنة البيان، وانصرفت متمثلاً :

لسان الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤاده ولم يبق إلا صورة اللحم والدم
وكائن ترى من صامت لك معجب زيادته أو نقصه في التكلــم

وكتب إليه ابن اللبانة :- (٣٤١-٣٤٠:٤/٢٠)

يا ذا الذي هز أمداحي بحليته وعزه إن يهز المجد والكرما
وأدبك لازرع فيه اليوم تبذله فخذ عليه لأيام المنى سلمــا

فتحيل في قليل بر ووجهه إليه وكتب معه :-

المجد يخجل من يفديك من زمن ثناك عن واجب البر الذي علما
فدونك النزر من مصفٍ مودتــه حتى يوفيك أيام المنى السلما "

ومن شعره عندما غلب عليه اليأس والهم :-

إن يسلم الناس من هم ومن كمد فأنني قد جمعت الهم والكمدا
لم ابق منه لغيري ما يحاذره فليس يقصد دوني في الورى أحدا
(١٩٤:٢/١٧)

ومن شعره :

أهــوى قضيب لجين قد اطلع البدر فيــه
إن كــان موتــي بلحظ منــه فعيــش يليــه
يــا ربِّ كــم أتمنـــى لقياه كــم اشتهيـــه
ولا أرى منــه شيئــا ســوى جفــاء وتيــه
طوبــى لــدار حوتــه وأمـــه وأبيـــه

بل ألف طوبى لعبد في موضع يلتقيه
(١٩٥:٢/١٣)

وقوله :

أفدى أبا عمرو وان كان عاتبا فلا خير في ود يكون بلا عتب
وما كان ذاك الود إلا كبارق أضاء لعيني ثم اظلم في قلبي

(٣٤١:٤/٢٠)

رفيع الدولة أبو يحيى :-

قال عنه ابن بسام وهو المعاصر له " ... وأبو يحيى فجر ذلك الصباح وضوء ذلك المصباح ، التحف بالصون وارتدى ، وراح على الانقباض واغتدى فما تراه إلا سالكا جددا ولا تلقاه إلا لابساً سؤددا ، وله أدب كالروض اذا زهر والصبح إذا اشتهر وقفه على النسيب وصرفه إلى المحبوبة والحبيب " (٤٦٠:١/١٢)
وقال عنه ابن الإمام في كتابه " سمط الجمان وسقط الأذهان " بـ " ذي الخلق الكريم والشرف الباذخ الصميم ، راضع لبان الرياسة ومرتشف مياه تلك الجلالة والنفاسة " (١٩٩:٢/١٧) ووصفه الحجاري في المسهب " فرع زاكٍ من تلك الشجرة الكريمة ، وعارض جود من صوب تلك الديمة ، طالب بين نوائب الدهر ، طيب المسك بين الحجر والقهر ... " (١٩٩:٢/١٧)
فقال عنه المقري : " له نظم رائق " (٣٤١:٤/٢٠) منه ما كتبه الى يحيى ابن مطروح يستدعيه لأنسٍ

يا أخي بل سيدي بل سندي في مهمات الزمان الانكد
لحْ بأفق غاب عنه بدره في اختفاء من عيون الحُسَد
وتعجل فحبيبي حاضر وفمي يشتاقِ وكأس في يدي
(١٩٩:٢/١٧)

فأجابه ابن مطروح قائلاً :-

أنا عبد من الأقل الاعبد قبلتي وجه بأفق الأسعد
كلما اظمأني ورد فما منهلي إلا بذاك المورد
ها أنا بالباب ابغي إذنكم والظمأ قد مد للكأس يدي
(٣٤١:٤/٢٠)

وكانت له علاقة وصداقة مع أبي نصر الفتح بن خاقان (٥٣٣ هـ)[٢٧] صاحب كتابي القلائد والمطمح الذي مدحه بقطعة نثرية أدبية ، وقال عن شعره " وله أدب كالروض المجود إذا زهر ونظم كزهر التمائم والنجود كالصبح إذا أسفر واشتهر، أوقفه على النسيب ... " (٢٥٤:٩/٢٠-٢٥٥) ، (٥٦٧:١٤)

ولرفيع الدولة مقطعات في مخاطبته :-

قدمت أبا نصر على حال وحشة فجاءت بك الآمال واتصل الانس
ومرت بك العينان واتصل المنى وفازت على ياس لبغيتها النفس
فأهلا وسهلا بالوزارات كلها ومن رأيه في كل مظلمة شمس
(٤٦١:١/١٢ ، ٥٦٨:١٤)

وقوله :

سلوت أبا نصر وما كنت سالياً وأظهرت عن قرب المزار الثنائيا
فديتك قل كيف اجترأت على النوى وخلفت من تهواه بالجزع ثاويا
ظننت بان يسليك نأي محله وهيهات ما تزداد إلا تماديا
(٤٦١:١/١٢ ، ٥٦٨:١٤)(٢٥٦:٩/٢٠)

وقوله :

عجبتُ أبا نصر لعيشك آسياً بفاسٍ وما فيها مقام لفاضل
وفي حمص[٢٨] الدنيا نعيم وجنة وماءٍ وظل وارف غير زائل
(٤٦٢:٢/١٢ ، ٥٦٨:١٤)

وعند وفاته سنة ٥٣٣ للهجرة رثاه بقوله :

مثنى الوزارة قد أودى فما فعلت تلك المحابر والأقلام والطرس
ما كنت احسب يوما قبل ميتته إن البلاغة والآداب تختلس
(٢٥٧:٩/٢٠)

وانه عاش إلى نهاية دولة المرابطين ، وهذا ما جاء في كتاب " نظم اللآلى في فتوح الأمر العالي " من تأليف أبي علي حسن بن عبد الله الاشبيري قوله :- " إن الرفيع الدولة هذا كان بتلمسان أثيرا عند واليها حينئذ أبي بكر بن مزدلي، وذلك سنة تسع وثلاثين وخمسمائة والموحدون ، أعزهم الله ، اذ ذاك بالجبل المعروف ببني الصخرتين يحاصرونها ، وحكى إن ابن أخيه أبا يحيى بن عز الدولة كان معه وإنهما قالا شعراً .." (٨٥:٢/٩)

ومن أخباره انه سلط عليه إنسان مختل إذا رآه يقول : هذا ألف لاشيء عليه ، يعني إن ملكه ذهب عنه وبقى فارغاً منه ، فشكا ذلك إلى بعض أصدقائه ، فقال: أنا أكفيك ، واجتمع مع الأحمق ، واشترى له حلواء ، وقال له : إذا رأيت رفيع الدولة بن المعتصم ، فسلم عليه وقبل يده ، ولا تقل هذا ألف لاشيء عليه ، فقال: نعم واشترط الوفاء بذلك ، إلى أن لقيه فجرى نحوه ، وقبل يده ، وقال : هذا هو باء بنقطة من أسفل ، فقامت قيامة رفيع الدولة ، وكان ذلك اشد عليه ، وكان به علة الخصى ، فظن إن الأحمق علم ذلك وقصده ، وصار كلما أحس به في موضع تجنبه (٣٤١:٤/٢٠)

واستأذن يوما على احد وجوه المرابطين ، فقال احد جلسائه " تلك امة قد خلت استحقارا واستثقالا للإذن له ، فبلغ ذلك رفيع الدولة ، فكتب اليه :-

خلت أمتي لكن ذاتي لم تَخْلُ وفي الفرع مايغني إذا ذهب الأصلُ
وما ضركم لو قلتم قول ماجد يكون له فيما يجيء به الفضل
وكل إناء بالذي فيه راشح[٢٩] وهل يمنح الزنبور مامجه النحل
سأصرف وجهي عن جنابٍ تحلهُ ولو لم تكن إلا إلى وجهك السبل
فما موضع تحتله بمرفع ولا يرتضى فيه مقال ولا فعل
وقد كنت ذا عذل لعلك ترعوي ولكن بارباب العلا يجمل العذل
(٣٤٢:٤/٢٠)

ومن شعره في النسيب :-

يا عابد الرحمن كم ليلة أرّقتني وجدا ولم تشعر
إذ كنت كالغصن ثنته الصبا وصحن ذاك الخد لم يشعر
(٤٦٠:١/١٢)

ومالي وللبدر لم يسمح بزورته لعله ترك الإجمال أو هجرا
إن كان ذاك لذنب ما شعرت به فأكرم الناس من يعفو إذا قدرا
(٨٢:٢/٩)
وأهيف لا يلوي على عتب عاتب ويقضي علينا بالظنون الكواذب
يحكم فينا أمره فنطيعه ويحسب منه الحكم ضربة لازب
(٨٣:٤/٩) (٢٥٥:٩/٢٠) (٤٦٠:١/١٢)

وله :

وعلقته حلو الشمائل ماجنا خنث الكلام مرنّح الأعطاف
مازلت أنصفه واوجب حقه لكنه يأبى من الإنصاف
(٨٣:٢/٩)(٤٦١:١/١٢)

وقوله :
حبيب متى ينأى عن القلب شخصهُ[٣٠] يكاد فؤادي أن يطير من البين
ويهدأ مابين الضلوع إذا بدا[٣١] كأن على قلبي تمائم من عيني
(٤٦١ :١/١٢)،(٩/٢٠ : ٢٥٥) وقوله :
أفدى أبا عمرو وان كان جانيا علىّ ذنوبا لا تعدد بالعتب
فما كان ذاك الود الا كبارق أضاء لعيني ثم اظلم للقلب
٩/٢٠ : ٢٥٥

وله :
سطا ظبي الخميلة ، يالقومي على أسد العرينة واستطالا
فأوتر قوس حاجبه اختيالا وفوق من لواحظه نبالا
(٨٢:٢/٩)

وقوله :
هذي ديارهم التي ذكرنني عهد الصبا وحديثه المعسولا
ما كان أجمل عهدهم وفعالهم لو كان فعلك يا زمان جميلا
(٨٢:٢/٩)

وله :
ألا أيها الظبي الذي راق وجهه ورقت حواشيه وناهيك من حسن
يظن أناس إنني بك مغرم لعمر الهوى ، ما اخطأ القوم في الظن
(٨٤:٢/٩)

وله : وقد رويت لغيره كذلك

سل الركب عن نجد فان تحية لساكن نجد قد تحملها الركب
وإلا فما بال المطى على الوجا خفافاً ، وما للريح حرجفها رطب
(٨٤:٢/٩)

وقوله :-
أبا العلا كؤوس الراح مترعة وللندامى سرور في تعاطيها
وللغصون تثن فوقها طربا وللحمائم سجع في أعاليها
فاشرب على النهر من صهباء صافية كأنما عصرت من خد ساقيها
(٨٤:٢/٩)

وله :

باكر إلى القصف أبـا عامـر فإنما نجح الفتى فـي البكـر
من قبل أن يسمع كـف الصبـا دمع الغوادي من خدود الزهـر
(٨٤:٢/٩)

وقوله :

لئن منعـوا عنـي زيارة طيفهـم ولم ألف في تلك الطلول مقيلا
فما منعوا ريح الصّبا سوق عرفِهم وقد بكرتْ تندى علـيّ بليـلا
ولا منعونـي أن اعُـلَّ بذكرهـم فؤادا بما يجني الصدود عليلا
(٨٣:٢/٩) (١٩٩:٢/١٧)

وله :

قالوا : حبيبك في إنسان ملقته مثل الحبابة إذ تطفو على الراح
فقلت : بينهما في ذلكم شبـه كلتاهما تبعثان السكر للصاحي
(٨٣:٢/٩)

وفي المدح له :

تزهى إذا علقتْ أسيافه علقـا كأنـه في خـدود البيض توريـد
يهتز عطفاك في يوم الوغى طرباً كان وقع سيوف الهند تغريد
تعني بذكـرك أزمـان والسنـة كأن ذكرك إيمـان وتوحيـد
(٨٥:٢/٩)

وكان له الأمل في عودة أيامهم والرجوع إلى بلاطهم ، في قوله :

إذا ما الأمر اخفق في سعـي وضاق مرامه من كلّ بـاب
فلا تقنط فـان الله يأتـي بفتح لم يكن لك فـي حساب
(٨٥:٢/٩)

أبو جعفر احمد بن المعتصم :- لم ترد ترجمته في كتب التراجم إلا قليلاً وجاء في المغرب عن المسهب للحجاري قوله " جرى في طلق أبيه وإخوته فأحسن في النظام إحسانا اوجب أن ينبه عليه " (١٨ / ٢: ١٩٩)

ومن شعره :

أتى بالبدرِ من فوق القضيـب فطارت نحوه طير القلـوب
وأشرق مَا بأفقي من ظـلام لنور منه في افق الجيـوب
وولـى بعـد تانيـس وبـر كمثل الشمس ولّـتْ للمغيـب
(١٩٩:٢/١٨)

وله :

كتبت وقلبي ذو اشتياق ووحشـة ولـو انـه يسطيـع مرّ يُسلُّم
جعلت سواد العين فيه سـواده وأبيضـه طرساً وأقبلت الثـم
فخيّل لي إنـي أُقَبـّل موضعـاً يصافحه ذاك البنـان المسلّم
(٣٤٢:٤/٢٠)

ابنته أم الكرام بنت المعتصم

عن المسهب " كان المعتصم قد اعتنى بتأديبها لما رآه من ذكائها " قال ابن سعيد في المغرب " كانت تنظم الشعر وعشقت الفتى المشهور بالجمال من دانية المعروف بالسمار" ، وعملت فيه الموشحات ، ومن شعرها فيه :-

يا معشر الناس الا فأعجبوا مما جنته لوعة الحب
لولاه لم ينزل ببدر الدجا من افقه العلوى للترب
حسبي ممن أهواه لو انه فارقني تابعه قلبي
(٣٢٠:٥/٢٠) ، (١٩٦:٢/١٨)

وقولها :-
ألا ليت شعري هل سبيل لخلوةٍ ينّزه عنها سمع كل مراقب
ويا عجب اشتاق خلوةً مَن غدا ومثواه مابين الحشا والترائب

وبلغ المعتصم خبره ، فخفي أمره من ذلك الحين (٢٠١:٢/١٨)

وفي دراسة فنية قصيرة وافية ، تبين إن أسرة بني صُمادح كانت أسرة شاعرة وجلّ شعرهم عبارة عن مقطعات قصيرة قيلت على البداهة والارتجال ، وارتبطت بحوادثها ، لذلك غلبت عليها الأوزان القصيرة أو المجزوءة ، وكانت تتميز بالسلاسة والسهولة من غير عمق وتفكير ، عدا المقطعات أو القصائد القليلة التي قيلت في المحن أو في العتاب التي تغلفت بضباب من الحزن والقتامة أما المقطعات الوصفية ولاسيما عند المعتصم فقد تميزت بدقة الوصف ، وجمال الأسلوب وحسن التشبيه ، وإجادة في استعمال فنون البيان والبديع بما تتلاءم مع الطبيعة الجميلة التي كان المعتصم يقضي معظم أوقاته بين ربوعها ، بينما تميزت المقطعات القليلة التي قيلت في الدهر أو زوال الملك بمرارة وخبرة عن أمراء جربوا نعيم الحياة من أوسع أبوابها ، ثم رأوا بأنفسهم انقلاب الدهر عليهم .

وكانت لهم اليد الطولى في الرسائل الشعرية ولاسيما مع شعراء كانوا يعدون من الصنف الأول ، وموضوعاتها كانت تقتصر في الغالب على الدعوة إلى مجالس الأنس ، وكان الشعراء يحرصون على الإجابة الرصينة بما يتناسب مكانتهم وكنوع من المعارضات يختلط فيها الإعجاب والرصانة والولاء .

وكان بلاطهم منتدى للشعراء وأصبح الشعر سلعة رائجة في منافسة مع بلاط ابن عباد من اشبيلية لاستقطاب الشعراء ، ومنح الأعطيات لهم ، فأجادت قرائهم بقصائد يفوح منها الصدق في التجربة الشعورية والوفاء بعد زوال ملكهم وفتحت صفحة بيضاء ناصعة في الأدب العربي بعيدة عن الشعر التكسبي

١. الرقم الأول يشير إلى تسلسل المصدر في قائمة المصادر ، والرقم الثاني يشير إلى الصفحة أو اللفظة في الكتب المرتبة معجميا .
٢. رضراض : ماصغر ودق من الحصى
٣. شراجب : أعمدة طويلة
٤. سنمار : رجل بنى لبعض الملوك بيتا أعجبه ، فجازاه بأن القاه من أعلاه فتردى ميتا مخافة ان يصنع مثل
٥. لغيره
٦. المتفرجات : الحدائق
٧. أبوجعفر بن خاتمه : عاصر سقوط المرية في العام ٨٩٤هـ وله رائية إستغاثة في ١١٤ بيتا موجها إلى السلطان العثماني بايزيد الثاني (قصة الادب الاندلسي محمد عبد المنعم الخفاجي ١/ ١٣٢ ــ ١٣٨
٨. السميسر : شاعر هجاء من قرطبة اصلا وكانت بينه وبين إبن الحداد مهاجاة توفي سنة ٤٨٠ هـ ، النفح ٢٥٩/٤ ــ ٢٦١ ، الذخيرة ٥٥١/١ ـ٥٦١

٩. الصقالبة : وهم الذين كان يؤتى بهم من مختلف البلاد الأفرنجة أطفالا ، فترعاهم الدولة وينشؤون نشأة إسلامية، وقد وصل عدد منهم الى راس الحكم في عهدي الفتنة وملوك الطوائف
١٠. ابو عبيد عبدالله بن عبدالعزيز البكري (ت ٤٨٧هـ) إشتهر بتصانيفه الكثيرة في اللغة والادب والجغرافية ، وله كتاب " المسالك والممالك) وله الترجمة في الذخيرة ١٤٤/٢ ، و الخريدة ٥٠٤/٢ ، ومسالك الابصار لإبن فضل الله العمري ١١/ورقة ٤٢٢ ، والقلائد ٦١٥/٤
١١. أبو الوليد النحلي : شاعر معروف بالنوادر الحلوة ، له الترجمة في الذخيرة ٤٨٠/٢ ، والنفح ٢٠٥/٤ ، وموسوعة شعراء العرب ٨٧١/٢
١٢. أبو الأصبغ بن أرقم كاتب وصاحب رسائل وسلطانيات ، نقل إبن بسام في ذخيرته فقرات طويلة من نثره ، ٢٣٠/٣ -٢٦١ ، وله الترجمة في بغية الملتمس ، ٣٣٥ دار كتب العلمية
١٣. علي عبد الغني المعروف بالحصري القيرواني ، الشاعر الكفيف له ديوان في رثاء إبنه بعنوان "إقتراح القريح " مرتب على حروف المعجم ، ينظر أبو الحسن القيرواني ، محمد مرزوقي وجيلان بن يحيى دار المنار تونس ١٩٦٣ ، وله الترجمة في الذخيرة ١٤٨/٤، وبغية الملتمس ، ٢٧٢ ، ومعجم الادباء ١٧١/٤ ، ووفيات الاعيان ٣ / ٣٣١
١٤. ابو بكر محمد بن عمار شاعر و وزير و سمي بأبي طيب الأندلسي ، قتله المعتمد بن عباد في سجن في حادثة مشهورة سنة ٤٧٧ هـ ، له ترجمة في الذخيرة ٢٢٧/٢ ، والقلائد ٢٥٣/٢-٢٨٨ ، وينظر محمد بن عمار الأندلسي ، د.صلاح خالص مط الهدى بغداد ، ١٩٥٧
١٥. أبو طالب بن غانم وهو إبن الإمام العالم غانم المخزومي ، النفح ٣٦٧/٤
١٦. ترجمته لاحقا وهو غير إبن شُهيد صاحب رسالة التوابع والزوابع
١٧. أبو جعفر بن الخزاز البطرني : لم نجد ترجمته
١٨. في الذخيرة : يسكِّن، ٢٢٤:٢
١٩. أبو عبد الله عبادة المعروف بابن القزاز : الشاعر الوشاح ، ترجمته في الخريدة ١٨٢:٢ والمغرب ١٣٤:٢ والنفح ٤١١:٣ ، ٤٩٣ ، ٦١٠ وله موشحات في دار الطراز لإبن سناء الملك
٢٠. ترجمته في الذخيرة ٤٣١:١ ، والمطمح ٨٠ ، والمغرب ٢ : ١٤٣ ووفيات الاعيان ٥ : ٤١ والإحاطة ٢٥٠:٢ ، والنفح ٣ : ٤١١ ، ٤٩٣ ــ ٦١٠ ، ٥: ٥٠ وينظر " أبو عبدالله بن حداد " الشعر والشاعر مجلة زانكو عدد ١٢ لسنة ٢٠٠٢ ، جامعة السليمانية
٢١. في الذخيرة ٤٥٦/١ ، واصل اخاك وان اتاك بمنكر
٢٢. ترجمته في الذخيرة (٤١٧/١-٤٣١) والجذوة (٣٨٣) والنفح (٤١٣/٣)
٢٣. هو الحكيم الفيلسوف جعفر ابن اديب افريقيا ابي عبدالله محمد بن شرف الجذامي ،ولد ببرجة ، ودخل الاندلس مع ابيه ، وهو ابن سبع سنين ، النفح ، ٣٦٥/٤
٢٤. المعجب : ٤٧٣ البيان المغرب ٣: ١٦٨ ،٣٠٤ ، ابن خلدون (العبر) ١٦٢:٤، دول الطوائف ١١٠-١٧٦
٢٥. ابو الحسين يوسف بن محمد بن الجد ، ترجمته في الذخيرة ٣٢٨:٢ ، والمغرب ٢٦٢:١
٢٦. في النفح ٤ :٣٤٠ ،وقد صدات فيها الجذاذة انملي
٢٧. ابو نصر الفتح بن عبد الله بن خاقان بن عبد الله القيسي ،اديب فاضل شاعر بليغ فصيح ترجمته في وفيات الاعيان ٢٣:٤ ومعجب الادباء ٥٤٦:٤

٢٨. حمص: اشبيلية
٢٩. هذا من قولهم ، كل اناء بما فيه ينضح
٣٠. في الحلة السيراء : حبيب إذا ينأى عن العين شخصه
٣١. * = = = : ويسكن ما بين الضلوع اذا بدا (٨٤:٢/٩)

– المصادر والمراجع –

١- ابو عبد الله بن حداد ، الشعر والشاعر ، مجلة زانكو عدد (١٢) لسنة ٢٠٠٢ .
٢- الاحاطة في اخبار غرناطة ، لسان الدين ابن الخطيب ، تح محمد عبد الله عنان نشر مكتب الخانجي القاهرة ١٩٧٧ .
٣- ازهار الرياض في اخبار القاضي عياض ، المقري التلمساني ، دار احياء التراث الاسلامي المشترك / المغرب .
٤- اعمال الاعلام او تاريخ اسبانيا الاسلامية تح ليفي بروفنسال ، دار المكشوف / بيروت ١٩٥٦ .
٥- الانيس المطرب بروض القرطاس في اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، ابن ابي زرع الفاسي ، تح محمد هاشم الغيلاني ، مطبعة الوطنية / الرباط ١٩٧٦ .
٦- البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب ،ابن عذارى المراكشي ج٤ تح احسان عباس دار الثقافة بيروت . د٠ ت .
٧- جذوة المقتبس في ذكر ولاة الاندلس ، ابو عبد الله محمد بن فتوح الحميدي مطبعة السعادة مصر ١٩٥٣
٨- جمهرة انساب العرب ، ابن حزم الاندلسي ، تح عبد السلام هارون – دار المعارف – مصر ١٩٦٢
٩- الحلة السيراء ، ابن الابار البلنسي تح حسين مؤنس ج٢ ط الشركة العربية للطباعة والنشر ١٩٦٣
١٠- خريدة القصر وجريدة العصر (قسم المغرب والاندلس) ، عمادالدين الاصفهاني ، تح محمد المرزوقي تونس ١٩٦٦ .
١١- دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي ، محمد عبد الله عنان ، مكتبة الخانجي – القاهرة ١٩٧٠
١٢- الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة جـ ١-٤ ، ابن بسام الشنتريني ، تح سالم مصطفى البدري – دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان – ١٩٩٨ .
١٣- الروض المعطار في خبر الاقطار ، ابن عبد المنعم الحميري ، تح احسان عباس ، مكتبة لبنان ، ١٩٨٤ .
١٤- قلائد العقيان ، الفتح بن خاقان الاندلسي ، نشر على بن احمد الهواري، مطبعة التقدم العلمية – القاهرة د. ت .
١٥- المطرب من أشعار أهل المغرب ، ابن دحية الكلبي ، تح إبراهيم الابياري – مطبعة الاميرية – القاهرة ١٩٥٤ .
١٦- المعجب في تلخيص اخبار المغرب ، عبد الواحد المراكشي ، تح محمد سعيد العريان ، المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية القاهرة . د٠ت.
١٧- معجم الادباء ، ياقوت الحموي ، نشر مرغليوث – بيروت ، لبنان– د٠ت .
١٨- المغرب في حلى المغرب ج٢ ابن سعيد المغربي ، تح شوقي ضيف ، دار المعارف – القاهرة ١٩٦٤ .

١٩- مقدمة ابن خلدون ، عبد الرحمن بن خلدون ج٤ . تح عبد الواحد الوافي – القاهرة . د٠ت .
٢٠- نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ، المقري التلمساني . تح احسان عباس ، دار صادر بيروت ١٩٦٨ .
٢١- نهاية الارب في فنون الادب ، احمد عبد الوهاب النويري ، وزارة الثقافة والارشاد القومي – القاهرة
٢٢- الوافي بالوفيات ، صلاح الدين خليل بن ايبك الصفدي ، نشرديدرينغ – مطبعة وزارة المعارف – استانبول ١٩٤٩
٢٣- وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان ، ابن خلكان ، تح محمد محيي الدين ، مكتبة النهضة – ١٩٤٥ .

Dr. Omar Ibrahim Tawfeeq
Assistant professor
College of Education University of kirkuk

Abstract

Kingdom of (bani - sumadih) was on of small countries of al . tawaief in Andalus , al.maria was it's capital ,it showed a great literature prosperity which collect scientists and poet, This research was like a bindle of light to this kingdom historically and literaturally and a divan of poetry for the family that jugged the country at that time it collect their records, feelings, happiness and pain between it's folds which looked liked short section of poetry that had written immediately and puree , with point to the compliment poems that had told about them by another poets who blessed by their care and good treatment